مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني – المجلد الحادي والاربعون

بغداد ٧٢

١٤١١هـ = ١٩٩٠م

الفهرس

الصفحة

الدكتور صالح احمد العلي
رصافة بغداد واطرافها ٥

الدكتور جميل الملائكة
مكانة اللغة العربية في الثقافة العربية الاسلامية ٦٠

الدكتور احمد مطلوب
التنمية اللغوية ٧٤

اللواء الركن محمود شيت خطاب
نهاية الاندلس ٩٥

الشيخ محمد حسن آل ياسين
ديوان الخبزارزي ١٤٥

الدكتور حاتم صالح الضامن
حصر حرف الظاء ١٦٦

الدكتور فاضل صالح السامرائي
حقيقة رأي الكوفيين في النقص والتمام ١٨٥

التقرير العام لسنة المجمعية ١٩٨٩ ــ ١٩٩٠ م ١٩٧

صباح ياسين الاعظمي
الكتب الواردة والمهداة الى مكتبة المجمع ٢١٥

سعر النسخة ديناران
وتضاف اليها اجرة البريد
تدفع قيمة الاشتراك سلفا

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٩٠

نِهَايَةُ الاَنْدَلُس

اللواء الركن محمود شيت خطّاب
عضو المجمع

الاندلس بين المد والجزر

١ ــ ولاية محمد الغني بالله وحوادث ايـامه :

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبي الحجّاج في صبيحة يوم عيد الفطر سنة (٧٥٥ هـ) حتى خلفه في الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله وكان حدثاً يافعاً ، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبي النّعيم رضوان ، وكانت غرناطة بعد ماتوالى عليها من الخطوب والأزمات في أواخر عهد أبيه يوسف ، قد تنفّست الصعداء منذ وفـاة ملك قشتالة ..وكان مـن بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين ابن الخطيب مؤرّخ الدولة النصرية وأعظم كتّاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وكان مولد ابن الخطيب في لوشة (١) من أعمال غرناطة في سنة (٧١٣ هـ ــ ١٣١٣ م) ، وكان هذا المفكرُ البارع أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ في المغرب الاسلامي ، مركز الصدارة في التفكير والكتابة هما ابن خلدون وابن الخطيب ، وقد درس ابن الخطيب اللّغة والاداب والطب

---

(١) نهاية الاندلس (١٩٧ ــ ١٢٦) .

(٢) لوشة : وبالاسبانية Loja ، تقع على مسافة خمسة وخمسين كيلو متراً من غربي غرناطة ، وهي اليوم بلدة متواضعة ، وقد كانت ايام الدولة الاسلامية بلدة زاهرة .

والفلسفة ، وبرز في النثر والنظم ، وخدم الدولة منذ حداثته ، فتولّى ديوان الكتابة للسلطان أبي الحجّاج ، ثـمّ انتقل إلى خـدمة ولـده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقّاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبار الأندلس سفيراً من قبله ، إلى ملك المغرب السلطان أبي عنان المريني (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، ويؤكّد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنّة أسلافه من ملوك بني الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعَد القدرُ علاك ما لاح في الدّجى قمر

ودافعت عنك كفّ قدرته

ما ليس يستطيع دفعه البشر

فتأثّر السلطان لقصيدته ، ووعد بإجابة سائر مطالبه ، وهكذا أدّى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له من بعد ذلك في حوادث الأندلس أعظم نصيب (٣) .

وفي أواخر سنة (٧٥٦ هـ ــ أواخر سنة ١٣٥٥ م) ، حاول حاكم جبل طارق المريني عيسى بن الحسن بن أبي منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ، ربما أفسحت للاسبان ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب ، ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر ، وأخمدت ثورته في المهد ، وقبض عليه وعلى ولده ، وأرسلا مصفّدين إلى المغرب ، فقضي باعدامهما ، وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السّعيد ، ومعه من الفرسان قوّة ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته (٤)

وفي أوائل عهد السلطان محمد شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت

(٣) الاحاطة (المقدمة ص ٣٧) ونفح الطيب (٣/٥٢) وابن خلدون (٧/٣٧٣) ، وفيها كامل القصيدة .

(٤) رحلة ابن بطوطة (٢/١٨٤) .

غرناطة شرّ العدوان مدى حين ولكنّ الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطوّرات جديدة . ففي رمضان سنة (٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م) نشبت في غرناطة ثورة فقد فيها الغني بالله ملكه ، وكان أخوه إسماعيل المعتقل في بعض أبراج الحمراء ، تؤازره جماعة من الزعماء ، وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبدالله ، وتدعو له سراً ، وتترقّب الفرص للوثوب بمحمد ؛ وكانت أمّه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعي والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحوّل بولده الى سكنى قصر جنّة الريف الواقع شمال شرقي الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا باسماعيل أخي السلطان مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ، ففرّ إلى وادي آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه في الوزارة لمدى قصير ، ثمّ ارتاب في نياته وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله . وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودّة وصداقة بملك المغرب ، السلطان أبي سالم ولد السلطان أبي الحسن .

وكان أبو سالم قد لجأ إليه حينما تغلّب عليه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى حكومتها ، في إجارة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفير في مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١ هـ) . واستقبلهما أبو سالم في فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب قصيدة عصماء ، فكان لانشاده أعظم وقع في النفوس ، وتأثّر السّلطان بها أيّما تأثّر (٥) . ولبث السّلطان المخلوع في بلاط فاس حيناً ، وتوثّقت بينه وبين المؤرّخ ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر الدولة المرينيّة ، روابط

(٥) الاحاطة (المقدمة ص ٣٨ — ٤٣) ، واللمحة البدرية (١٠٨) وابن خلدون (٣٠٦/٧) وما بعدها ، وازهار الرياض (١٩٤/١ — ١٩٥) .

المحبّة والصداقة ، وعقدت أيضاً بين المؤرّخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثّقت فيما بعد . وكان محمد بن الأحمر يؤمّل أن يستردّ ملكه المنزوع بمعاونة بيدرو الثاني (بطره) ملك قشتالة تنفيذاً للاتفاق الذي عقد بينهما . ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع أنّ ملك قشتالة كان مشغولاً باضطرابات مملكته . فآثر أن يعقد السّلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفي أثناء ذلك حدث انقلاب لقي فيه السّلطان أبو سالم مصرعه ، واستبدّ بالدولة الوزير عمر بن عبدالله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه في استرداد ملكه ، فاستجاب له الوزير . ومازال محمد يدبّر أمره بمعاونته ، حتى تهيّأت الفرصة بوقوع الثورة في غرناطة ، ومقتل منافسه السلطان إسماعيل على يد المتغلّب عليه الرئيس أبى سعيد ، فجاز محمد إلى الأندلس مع وزيره ابن الخطيب ، واستولى على غرناطة ، وفرّ الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة ٧٦٣ هـ — ١٣٦١ م) . ووفد عليه المؤرّخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل ، فاحتفى به وأكرم مثواه ، وأرسله سفيراً عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ، ليوثّق أواصر الصداقة بينهما (٧٦٥ هـ — ١٣٦٣ م) ، فقصد ابن خلدون بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة ، وأدّى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . ولما اعتزم ابنَ خلدون العودة بعد أن أتمّ مهمّته ، قدم له ملك قشتالة هدية ثمينة ، فسُرّ السلطان محمد لنجاحه ، وأقطعه قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش مدة في غرناطة معززاً مكرماً(٦) .

ولم يمض على ذلك قليل ، حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخليّة ، وتمتّعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة ، وكان بيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقّب بالقاسي الذي خلف أباه الفونسو الحادي عشر في سنة

(٦) انظر تفاصيل السفارة في التعريف (٤١٢/٧) طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر . والاحاطة (١٥/٢) .

(١٣٥٠ م) قد غلا باستبداده وقسوته ، حتى أنّه لم يحجم من قتل زوجته الملكة بلانش‌دي بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوّج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ، وخرج عليه أخوه غير الشّرعيّ الكونت هنري دي تراستمارا ، ولد إلينورا دي كزمان ، وفرّ إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس . على أن يجمع له جيشاً من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ، وأشرف على تنفيذ المشروع الدوق دي جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يؤمئذ . وقاد هنري جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦ م) ، فلم يقو بيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلّى الشعب عنه ، وفرّ إلى ولاية جويين الفرنسية فيما وراء البرنية ، واستغاث بالأمير إدوارد ولي عهد إنكلترا ، وقد كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الانكليزي لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة في قوّاته ، واستطاع الكونت هنري بمعاونة شعبه ، ومعاونة ملك أراغون. أن يحشد جيشاً عظيماً . والتقى الفريقان في (نجارا) في الثالث من نيسان — أبريل (١٣٦٧ م) ، فهزم الكونت هنري بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد بيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الانكليزي ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتدّ بقوّاته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطرام في قشتالة ، ووثب الشعب ببيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنري فغزا قشتالة في أنصاره ، ونشبت بين الفريقين في (مونتيل) موقعة أخرى هزم فيها بيدرو ، وجلس أخوه مكانه على العرش سنة (١٣٦٨م) (٧) وكان بين قوّات الملك القتيل فرقة من حلفائه المسلمين تعاونه وتذود عنه .

وقد فصّل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية في قشتالة في تلك المدة ، وكان معاصراً لها وقريباً من مسرحها ، وروايته تدلّ على حسن اطلاعه ، ودقّة فهمه لسير الحوادث(٨) .

(٧) Darid Humai History of England , v. 11 p. 202 — 205

(٨) انظر التفاصيل في الاحاطة (٢/٢٤ ـ ٢٦) .

وتولىّ ابن الخطيب وزارة الغنيّ بالله للمرّة الثانية ، وهو متمتّع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر في البلاط وفي الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على على نفوذ منافسه الوحيد في السلطة وهو شـيخ الغزاة عثمان بن يحيى وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجوّ وتبوّأ ذروة القوّة والسلطان . وكان من معاونيه في الوزارة تلميذه الكاتب الشاعر الكبير أبو عبدالله بن زَمرَك ، وقد تولىّ كتابة السرّ في كنفه وتحت رعايته . والظاهر أنّ اجتماع السلطان والنفوذ في يد ابن الخطيب على هذا النحو ، كان سبباً في انحرافه عن جادة الاعتدال والرويّة ، إلى الاستبداد واتِّباع الهوى ، وبث حوله معتركاً من البغضاء والخصومة ، وكثرت في حقِّه السِّعاية والوشاية ، واتّهمه خصومه بالالحاد والزندقة ، لما ورد في بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب في النهاية أنّ السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأنّ عطف مليكه قد فتر ، وخشي العاقبة على نفسه ، فعوّل على مغادرة الأندلس وسار إلى الثغور الغربية في نفر من خاصته ، بحجّة تفقدها ، وعبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣ هـ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب السلطان عبدالعزيز المريني ، وكانت تربطه به مودّة وثيقة . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربّع في الوزارة في المرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه في الوزارة تلميذه ابن زمرك . وكان قد انقلب عليه في أواخر أيامه ، وغدا من خصومه وأشدّهم سعياً إلى نكبته .

وقضى ابن الخطيب في منفاه زهاء ثلاثة أعوام واستقرّ في فاس معزّزاً مكرّماً . ولكنّ السلطان عبدالعزيز . ما لبث أن توفي ، وساءت الأمور في عهد ولده الطفل الملك السعيد ، ووقع انقلاب انتهى بجلوس السلطان أحمد بن أبي سالم على العرش ، وهو صديق الغني بالله وحليفه ، وكان بلاط غرناطة وخصوم ابن الخطيب في الأندلس يجدّان في ملاحقته ومطاردته ، فسعوا عندئذ في بلاط فاس للقبض عليه واتّهامه بالزندقة ، وكلّل مسعاهم آخر الأمر بالنّجاح ، واعتقل ابن الخطيب ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصِّبين بوجوب قتله تنفيذاً لحكم الدين ، ودسّ عليه

بعض الأوغاد ، فقتلوه في سجنه ، وذلك في آواخر سنة (٧٧٦ هـ – ١٣٧٥ م) ، وهكذا ذهب الكاتب الشاعر الكبير ضحيّة الغدر السياسيّ والتعصب الشائن (٩)

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحا ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزّقته الأهواء وأضنته الفتن ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله في ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثّرة تفيض قوّة وبلاغة ، في الحثّ على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهدّدهم ويهدّد وطنهم من خطر المحو والفناء إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم (١٠) .

وأبلغ من ذلك كلّه في الدّلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ، ما وجّهه في وصيته إلى أولاده من النصح ، بعدم الاسراف في في اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد الذي لايصاح لغير الجهاد ، فلايستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلّة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن تغلّب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ومعوّقاً عن الانتقال أمام النوائب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالاجمال في الطلب أولى » (١١) .

وسلك الغنيّ بالله في حكمه مسلك القوّة والحزم ، واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الانشاء والعمران فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) في

(٩) ان خلدون (٧/٣٤٠ – ٣٤١) .

(١٠) نقل الينا المقرى في نفح الطيب وازهار الرياض كثيراً من هذه الرسائل ؛ وانظر الاحاطة (٢/٣١ – ٣٩) .

(١١) نقل الينا المقرى في نفح الطيب وصية ابن الخطيب كاملة ، وهي من ابدع الوصايا الابوية السياسية (٢/٤٢٥) وما بعدها ، وكذلك في ازهار الرياض (١/٣٢) وما بعدها .

في غرناطة ، وأنفق عليه أموالاً عظيمة ، وعني بتحصين الثغور ، وعمل على بثّ روح الجهاد والحميّة في النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته في ذلك وسفيره إلى جمهور الأمة ، وزيره القويّ البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور ببراعة ، واستمرّت رسائله وخطبه المؤثرة في ذلك تترى أينما كان ، بالأندلس أو المغرب ، حتى نهاية حياته .

وفي أواخر سنة (٧٦٧ هـ – ١٣٦٦ م) . نظّم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه ، وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فمزّقتهم الجند ، وقبض على زعيمهم ، وزاد إخفاق المؤامرة مركز السلطان توطيدا .

وفي عصر الغنيّ بالله ، توطّدت أواصر الصداقة والمودّة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتّصلت بينهما السفارة والمكاتبة (١٢) .

وفيما يختص بالعلائق السياسية ، فقد عقد الغنيّ بالله بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن صديقه أبي فارس عبد العزيز سلطان المغرب ، مع بيدرو الرابع ملك أراغون معاهدة صلح وصداقة لمدة ثلاثة أعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة (٧٦٨ هـ – آذار – مارس – ١٣٦٧ م) وفيها يتعهد كلّ من الفريقين بأن يمتنع رعاياه عن الاضرار بالفريق الآخر في البر والبحر في السرّ أو الجهر ، وأن يكون لرعايا كلّ فريق حق التجوّل والمتاجرة بأرض الفريق الآخر ، والمرور في البحر والبر ، دون اعتراض أو مغارم غير عاديّة ، وأن تطاق أراغون حريّة الهجرة للمدجّنين ، وأن يمتنع كلّ فريق عن معاونة الفريق الآخر (١٣) .

واستطال حكم الغنيّ بالله حتى سنة (٧٩٣ هـ – ١٣٩١ م) ، وساد الأمن والسلام في عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بأحداثها الداخلية وحروبها

(١٢) انظر التفاصيل في : نهاية الاندلس (١٣٤ – ١٣٥) ، ويراجع نص الرسالة في صبح الأعشى (٨/١٠٧ – ١١٥) .

(١٣) Archivo de la Corona de Aragon, No. 152.

الأهلية ، وغلب التهادن في تلك المدّة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطيّة أن تنتهز فرصة الحوادث الداخلية في المملكة الاسبانية ، وأن تمدّ يد التحالف والحماية غير مرّة لملك قشتالة المخاوع بيلرو القاسى ، إذكاءً للحرب الأهلية بين الاسبان .

ولم يخل عصر الغنيّ بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصراع على القشتاليين وكانت القوّات القشتالية قد تسرّبت من أطراف ولاية إشبيلية الجنوبية إلى أحواز رندة الشرقية ، واحتلت فيها موقعين حصينين من أراضي المسلمين هما برغة وجيرة(١٤) . واستطاعت بذلك أن تقطع الطريق بين رندة ومالقة ، ففي شعبان سنة (٧٦٧ هـ - ١٣٦٦ م) زحف المسلمون على هذين المعقلين من الشمال والجنوب واحتلوهما بعد قتال شديد وفي الوقت نفسه استؤنفت حركة الغزو لأراضي الاسبان ، ففي شعبان سنة (٧٦٨ هـ - ١٣٦٧ م) زحف الغنيّ بالله في قوّاته على أراضي ولاية اشبيلية ، وغزا مدينة أطريرة الواقعة جنوب شرقي إشبيلية ، وافتتح حصن أشر من معاقلها ، واستولى على كثير من الغنائم والسّبى ، وعاث في أحواز إشبيلية ذاتها ، وهي يومئذ عاصمة قشتالة . وفي أواخر هذا العام ، سار الغنيّ بالله في قوّة كبيرة إلى مدينة جيّان ، وحاصرها بشدة ، واقتحمها بعد معارك شديدة ، واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسّلاح والنّعم ، وأسروا جموعاً كثيرة ، وكان ذلك في أواخر شهر المحرّم سنة (٧٦٩ هـ - أيلول - سبتمبر ١٣٦٧ م) . وفي شهر ربيع الأول من هذا العام ، زحف الغنيّ بالله على مدينة أبدة شمال جيّان ، وافتتحها عنوة ، ودمّر صروحها وكنائسها وأسوارها ، وتركها خراباً بلقعاً (١٥) ، وعاد إلى غرناطة مكلّلاً بغار الظفر .

(١٤)برغة هي (Burgo) الحديثة ، وتقع على مقربة من شرقي رندة . وجيرة هي : (Guera) وتقع جنوب شرقي رندة .

(١٥) الاحاطة (٢/٥٤ - ٥٨) والاستقصا (٢/١٣٢) .

وفي ربيع سنة (٧٧١ هـ - ١٣٧٠ م) ، زحف المسلمون ثانية على أحواز إشبيلية ، وحاصروا مدينة قرمونة الحصينة مدى حين ، واقتحموا مرشانة الواقعة في جنوب شرقي قرمونة . وهكذا ظهرت المملكة الاسلامية في تلك المدة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ زمن بعيد ، وكان عصر الغنيّ بالله عصراً ذهبياً مليئا بالسؤدد والرخاء والدّعة ، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور(١٦) .

٢ - يوسف ابو الحجاج وحوادث ايامه

ولما توفي الغنيّ بالله سنة (٧٩٣ هـ - ١٣٩١ م) ، خلفه ولده يوسف أبو الحجّاج (يوسف الثاني) ، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه ، فاستبدّ بالأمر ، وقتل أخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً في محبسهم ، ثم سخط يوسف على وزيره وقتله ، لما نمي إليه من أنّه يحاول اغتياله بالسمّ بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودي ، وزجّ الطبيب في السجن ، ثم قتل بعد ذلك(١٧) . واستأثر يوسف بالسلطة ، وكتب إلى ملك قشتالة في طلب المهادنة والسّلم ، وأطلق سراح عدد من الفرسان الاسبان الذين أسروا في بعض المعارك السّابقة ، وأرساهم مكرّمين إلى بلاط إشبيلية ، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته ، وعقد السلم بين المملكتين .

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذ كان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبّته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده . وزحف بالفعل في أنصاره على الحمراء ، ولكن محاولته أخفقت ، وتفرّق الثوار حين برز إليهم سفير المغرب وقد كان وقتئذ في القصر ، وأنّبهم على مسلكهم ، ونصحهم بالهدوء والاتّحاد ضد الاسبان(١٨) .

---

(١٦) نهاية الاندلس (١٢٧ - ١٣٦) .
de la Dominacion de los Arabes en Espana ; V. 111. P. 169.

(١٧) الاستقصا (١٤٢/٢) .

(١٨) Conde : Ibid; V. 111. P. 171. ، وانظر الاستقصا (١٤٢/٢) حيث يرد هذه للرواية نقلا عن مصدر اسباني Historia : Conde .

وقام المسلمون في عهد يوسف بالاغارة على أراضي الاسبان في أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان الاسبان من جانبهم في فحص غرناطة (المرج La Vega) ، فردّهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة ، ثم عادالفريقان إلى التهادن والسلم .

وتوفى السلطان يوسف في أوائل سنة (٧٩٧ هـ – ١٣٩٤ م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل : إنّه توفى مسموماً على إثر مكيدة دبّرها له سلطان المغرب أبو العبّاس المريني لاهلاكه ، وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع في السمّ ، فلبسه يوسف ومسّه أثناء ركوبه وهوعرقان ، فسرى إليه السمّ وتوفى ، وهي رواية تحمل مالا يصدّق (١٩)

٣ – محمد بن يوسف وحوادث ايامه

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبّر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لاقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثمّ قبض على أخيه وزجّه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من ثغر المنكب ، وشدّد في الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع ، بيد أنّه كان في الوقت نفسه أميراً موهوباً ، رفيع الخلال ، فياضَ العزم والشّجاعة . ولأوّل ولايته استدعى الوزير أبا عبدالله بن زمرك لحجابته وكان هذا الوزير الطاغية قد خلف أستاذه ابن الخطيب في وزارة الغنيّ بالله مدى أعوام طويلة ، فلما اشتدّ عبثه واستبداده ، نكبه الغنيّ بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث في الوزارة هذه المرّة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة ، وكثر خصومه ، وفي أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) ، دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله (٢٠)

(١٩) نفح الطيب (٤/٢٨٦ و ٢٩٠) .

(٢٠) ولاية الغرب : غربي الاندلس ، وهي بالافرنجية Algarre محرفة عن الغرب .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودّة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وعقدت الهدنة فعلاً بين الطرفين ، بيد أنّه لم يمض قليل على ذلك ، حتى أغار القشتاليّون على بسائط غرناطة ، وعاثوا فيها ، فحشد محمد قوّاته و غزا ولاية الغرب وخرّبها ، واستولى على حصن أيامونتي (٢١) ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبّي ، وانتقم الاسبان بالعود إلى غزو أرض غرناطة ، وكان هنري الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجدّ في الأهبة للحرب ويجهّز الجيوش والأساطيل ، وكان محمد من جانبه يتأهّب للدفاع ، ويراسل ملوك العدوة لانجاده . وبعث ملك تونس وتلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحريّة ، ولكنّها هزمت ومزّقت تجاه جبل طارق . ثم عقد بين الفريقين اتّفاق هدنة وتحكيم لتقدير الأضرار لمدة عامين (٦ تشرين الأول — أكتوبر ١٤٠٦ م) (٢١) ، ولكن هنري الثالث توفي بعد ذلك بقليل (أواخر سنة ١٤٠٦ م) وخلفه على عرش قشتالة ولده خوان (يوحنا) طفلاً تحت وصاية أمه وعمّه فرديناند . ولم يحترم الوصيّ الجديد أحكام الهدنة المعقودة ، بل عمد إلى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوّة والعزم ، فسار إلى غزو أراضي المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة ، واقتحم حصن باغة (٢٢) وعاث في تلك الأنحاء ، واستردّ حصن أيامونتي من المسلمين . وبادر محمد بدوره بغزو أراضي قشتاله من ناحية الشرق وعاث في ولاية جيّان ، فاضطر فرديناند أن يسير إلى الشرق لانجاد الاسبان ، واستمرّت المعارك بين الطرفين حيناً ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨ م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة ، لم يلبث أن اشتد به المرض ، فتوفى سنة (٨١١ هـ — ١٤٠٨ م) .

على أنّه في الوقت الذي كانت الحرب تضطرم فيه بين غرناطة وقشتالة على هذا النحو بلا انقطاع ، كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراغون منافسة قشتالة وخصيمتها

(٢١) Archivo gechiral de Simancas : P . R .

(٢٢) باغة : وهي بالاسبانية Priego

أحياناً ، بصلات المودة والصداقة . ففي ربيع الأول سنة (٨٠٨ هـ - أيلول - سبتمبر - ١٤٠٥ م) عقدت بين السلطان وبين مرتين ملك أراغون وولده مرتين ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف ، توضح لنا نصوصها الدقيقة الشاملة مجمل المسائل التي كانت في هذا العصر ، تشغل المسلمين والاسبان في شبه الجزيرة الاسبانية .

وتنص هذه المعاهدة على أن يعقد بين الدولتين « صلح ثابت » ، لمدة خمسة أعوام من تاريخ عقدها ، وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضي الفريق الآخر ، آمنين في انفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء ، وأنه متى احتاج ملك أراغون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما ، فان سلطان غرناطة ينجدهما باربعمائة أو خمسمائة فارس ، على أن يتكلفاهما بنفقاتهم ، وذلك بشرط أن لا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة غرناطة ، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوما باعانته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح ، على أن يتكفل هو بنفقاتها وعلى ألا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة أراغون ، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأي نوع من أنواع المساعدة(٢٣) .

٤ - يوسف بن يوسف

ولما توفي محمد بن يوسف ، خلفه في الملك أخوه يوسف (الثالث) ، وكان سجيناً طوال حكمه بقلعة سلوبانية كما ذكرنا . ودخل يوسف غرناطة في حفل فخم ، واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ، ويعلق عليه الشعب آمالاً كبيرة . وكان أول ما عنى به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته في البداية ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضي العامين إلى تجديدها ، أبى القشتاليون ، وطلبوا

(٢٣) انظر تفاصيل المعاهدة في : نهاية الاندلس (١٣٩ - ١٤٠) .

إليه الخضوع إلى قشتالة إذا شاء استمرار السّلم ، وأنذروه بأعلان الحرب ، فرفض وأخذ في الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ خوان الثاني تحت وصاية أمّه وعمّه فرديناند ، فما كادت تنتهي الهدنة حتى زحف الاسبان على أرض غرناطة بقيادة فرديناند الوصيّ ، وضربوا الحصار على مدينة أنتقيرة في شمال غربي مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة . وحاولت حامية أنتقيرة أن تحطمّ الحصار وأنزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والاسبان معركة كبيرة بجوار أنتقيرة . وبذل المسلمون لأنقاذ المدينة المحصورة جهوداً رائعة ، ولكنهم هزموا أخيراً ، واضطرّت المدينة الباسلة إلى التّسليم ، فدخلها الاسبان سنة (١٤١٢ م) وأسبغ على فاتحها فرديناند من ذلك الحين لقـــب : « صاحب أنتقيرة » . وعاث الاسبان بعد ذلك في أراضي المسلمين ، وأخيراً رأى السلطان يوسف أن يعقد هدنة مع قشتالة حقناً لدماء المسلمين ، واجتناباً لاستمرار هذه المعارك المخرّبة ، فارتضى بلاط قشتالة ، وعقد السّلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى الاسبان دون فدية .

وفي عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المريني لاحتلال الثّغر ، لاعتقادهم أنّه أقدر على حمايتهم من غارات الاسبان ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبدالله في الجند تخلّصاً منه ، ولكنّ ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة في موقعة حاسمة ، وأسر زعيمهم عبدالله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ثمّ ردّه إلى المغرب وزوّده بالمال وبعض الجنود ليناهض أخاه فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه (٢٤) .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتي قشتالة وغرناطة ، أخذت أواصر السّلم تتوثّق بينهمـــا ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام

(٢٤) الاستقصا (١٤٨/٢) .

المتبادل ، ولم تشهد غرناطة من قبل عهداً كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمتين الخصيمتين . وكانت غرناطة يومئذ تغصّ بالفرسان والأشراف الاسبان ، تجتذبهم خلال أميرها وبهاء بلاطها وفروسيتها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين الاسبان في أعظم ساحات المدينة ، وتجري طبقاً لأرفع رسوم الفروسيّة الاسلاميّة ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة في تلك الأيام المشهورة في أروع الحلل وأبدع الزينات (٢٥) . وكانت الأمة الأندلسية تتمتّع يومئذ في ظلّ ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر في نفس الوقت في ظلّ هـذا السّلم الخلّب والترف الناعم إلى نوع من الانحلال الخطر ، الذي يعصف بمنعتها وأهبتها الدفاعية . وتوفى السلطان يوسف في سنة (٨٢٠ هـ – ١٤١٧ م) بعد حكم دام نحو تسعة أعوام ، وكان أميراً راجح العقل ، بارع السياسة ، عظيم الفروسية والنجدة ، محباً لشعبه ، فكان حكمه القصير صفحة زاهية في تاريـخ مملكة غرناطة .

ابو عبيدالله محمد الايسر بن يوسف

توالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدّة من الأمراء الضعاف ، أوّلهم ولده أبو عبدالله محمد الملقّب بالأيسر ، وكان أميراً صارماً سيّىء الخلال ، متعالياً على أهل دولته ، بعيداً عن الاتّصال بشعبه ، لايكاد يبدو في أيّة مناسبة عامة ، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتّصال بشعبه وكبراء دولته . وكان هذا الوزير النّابه ، وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته ورقة خلاله ، لتلطيف حدّة السّخط العام على مليكه ، بيد أنّه كان يحاول أمراً صعباً . ولا بد لنا من التعريف ببني سراج ، فهم الذين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة ، الذين غدت سيرتهم فيما بعد

(٢٥) Conde; ibid; P. 197 & 180. ، وكذلك 1906) V. 111 P. 4(، وكذلك
Historia de Grannada : Lafuente Alcantra .

مورداً خصباً للقصص المغرق ، وهم من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم إلى مَذْحج وطيء من البطون العربية العريقة ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلي مرسية ، بيد أنّهم لم يظهروا على مسرح الحوادث في تاريخ الأندلس إلاّ في مرحلته الأخيرة ، أعني في تاريخ غرناطة . قد كانوا بغرناطة من أعظم سادتها ، كانوا أنداداً للعرش والسلاطين (٢٦) منذ عهد السلطان الأيسر ، نرى بني سراج في طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون في سبر الحوادث بأعظم النصيب . قد كان حكم السلطان الأيسر ، بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . في عهده ساءت الأحوال ، واشتدّ سخط الشعب ولم تُجد محاولات الوزير ابن سراج لتهدئة الأمور . وقامت ثورات متعاقبة ، فقد فيها الأيسر عرشه ثم استردّه غير مرّة ، وكان بلاط قشتالة يشجّع هذه الانقلابات ويؤازرها ، وكان الزعماء الثائرون يتطلّعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيها . وسنرى فيما يلي كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة في تلك الأيام ، من أعظم العوامل في انحلال المملكة الاسلامية والتّعجيل في سقوطها .

وفي خلال حكم الأيسر المضطرب ، كان الاسبان يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها في سنة (٨٣١ هـ – ١٤٢٨ م) وتوغّلوا في أرجائها ، وعاثوا في بسائط وادي آش ، فزادت الأمور في غرناطة اضطرابا ، وازداد الشعب على الأيسر سخطاً ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح في ردّ العدو عن أرض الوطن ، وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بالأمير محمد بن يوسف الثالث ، وهو ابن أخي الأيسر . وفي رواية أنّه ولده ، ومحمد هذا هو

(٢٦) نفح الطيب (١/١٣٨) .

الملقبّ « بالزغيرّ » ، وفرّ الأيسر في أهله ونفرٍ من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلاً بحماية سلطانها أبي فارس الحفصيّ .

وجلس محمد « الزغيرّ » (٢٦أ) على عرش غرناطة ، وكان أميراً بارع الخلال وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبّة الشعب ولكنّه لم يوفّق إلى إخماد الدسائس والفتن المستمرّة وكان بنو سراج ألدّ خصومه وأشدّهم مراسا ، فمال عليهم وطاردهم وعوّل على سحقهم واستئصال نفوذهم القويّ المتغلغل في انحاء المملكة . وغادر يوسف بن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة الفرسان من أفراد أسرته تفادياً لانتقام « الزغيرّ » وبطشه ، وسار أولاً إلى ولاية مرسية ، ثمّ سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة خوان الثاني ، فرحّب بهم واكرم وفادتهم . واتّفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لردّ السلطان الأيسر إلى العرش . واستدعى الأيسر من تونس ، فلبّى الدّعوة ، وزوّده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان ، وهدايا ثمينة لملك قشتالة ، ونزل الأيسر في عصبته في ثغر المرية حيث استقبله الشعب بحفاوة ، ونودي به ملكا . ومنى الخبر إلى الزغيّر ، فأرسل قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكنّ معظم جنده انضمّوا إلى الأيسر وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادي آش حيث يحتشد أنصاره ، ثمّ زحف على غرناطة في قوّة كبيرة. ورأى محمد الزغير اتباعة ينفضّون من حوله تباعا بيد أنّه امتنع في عصبته القليلة بقلعة الحمراء معتزماً الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة ، واستقبل بحماسة ، وأعلن نفسه ملكا ، وحاصر الحمراء بشدّة ، فسلّمها إليه أنصار الزغيرّ . وقبض على الزغيرّ وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله ، وهكذا انتهت مغامرة الزغيّر على هذا النحو المؤسي ، بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠ م) (٢٧) .

(٢٦) نفح الطيب (١/١٣٨) . زغير : وهي النطق العامي الاندلاسي لكلمة « صغير » ، ولايزال هذا التعبير مستعملا وشائعا في العاصمة العراقية ، انظر : Dozy : Supp. aux Dict. Arabes,
وذكر كوندى ان الزغير معناها السكير (Zaquir) : انظر : Conde. ibid; V. 111. P: 182.

(٢٧) Conde ; ibid . V. 111 P. 184 — 195. وانظر ايضا : Lafunte Alcantra ; ibid, V. 111. P. 121

ونظمّ السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني في تجديد الهدنة ، فاشترط أن يؤدي الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة في سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدي فوق ذلك جزية سنوية ، اعترافاً بالطّاعة ، فرفض الأيسر ، وهدّد ملك قشتالة بالحرب . وما كادت تنتهي الفتنة الداخلية التي كانت ناشبة يومئذ في قشتالة ، حتى أغار الاسبان على أراضي المسلمين ، وقصدوا إلى رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم ، واستطاع أن يردّهم في البداية ، ولكنّ ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه في قوّات كبيرة ، وزحف على حصن اللّوز وأرشدونة ، وعاث في تلك المنطقة ، ثمّ عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السّبي والغنائم .

وفي أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة ، متوجّساً من سير الحوادث فيها . وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وهذا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب في يد القدر . وانقسمت المملكة الاسلامية شيعاً وأحزاباً متنافسة متخاصمة ، وألفى الاسبان فرصتهم السانحة لاذكاء الفتنة ، وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرّق . وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمي إلى بيت الملك عن طريق أمّه ، هو أبو الحجّاج يوسف بن المولى ، وكانت أمّه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله ، وأبوه ابن المولى من وزراء الدولة النّصريّة . ودبّرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر ، وكان يوسف أميراً قوياً ، وافر الثراء والهيبة ، وكان ملك قشتالة ، خوان الثاني ، يعسكر يومئذ بجيشه على مقربة من غرناطة ، يتتبّع سير الحوادث ، ويرقب الفرص ، فقصد إليه يوسف ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش لنفسه ، وتعهّد بأن يحكم باسمه وتحت طاعته ، فلبّى ملك قشتالة دعوته ، وعقد معه يوسف وثيقة بالخضوع يقرّر فيها أنّه من أتباع ملك قشتالة وخدامه ، وأنّه إذا حصل على الملك ، فإنّه يتعهّد بتحرير جميع الأسرى الاسبان ، وبأن يدفع لملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب ، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائه سواء كانوا اسباناً أو مسلمين ، وأن يحضر جلسات مجلس الكورتس (مجلس النواب القشتالي) بنفسه إن كان منعقداً جنوب طليطلة أو بانابة أحد أبنائه

أو ذوي قرابته إن كان منعقداً داخل قشتالة . وتعهّد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف طول أيام حكمه وأيام أبنائه ، وأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين والاسبان ، وألاّ يحمي مَن يلتجىء إليه من أعدائه . ووقعت هذه المعاهدة بين الفريقين في السابع من المحرّم سنة (٨٣٥ هـ — ١٦ أيلول — سبتمبر ١٤٣١ م) ونفذّت على الأثر ، إذ أرسل ملك قشتالة جنده ، فغزت غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قوّاته والتقى بالاسبان في بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، ارتدّ الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أمّا يوسف ، فقد استطاع بمؤازرة الاسبان أن يستولى على قواعد اعترفت بطاعته ، مثل رندة ولوشة وحصن اللّوز وغيرها . وأعلن ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف ، ونودى به ملكاً ، فسار يوسف بقوّاته إلى غرناطة ، فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج ، فهزم ابن سراج وقُتل ، ودخلت جنود يوسف غرناطة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفضّ الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر الفرار وحمل أمواله ، وغادر غرناطة في أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التي بقيت على طاعته ، ودخل يوسف ابن المولى الحمراء ظافراً وتربّع على العرش ، وذلك في أول كانون الثاني يناير — ١٤٣٢ م) .

وكان أوّل ما فعله يوسف ، أن جدّد لملك قشتالة عهد الخضوع ، فوقّعه باعتباره سلطان غرناطة في ٢٢ جمادى الأولى من نفس العام (٢٧ كانون الثاني ١٤٣٢ م) (٢٨) ، بيد أنّ حكمه لم يطل ، إذ كان شيخاً مريضاً ، فتوفى بعد

(٢٨) Archivo general de Simancos, P. R. 11 — 129. ، وقد حصل الاستاذ عبدالله عنان على صورة هذه الوثيقة بنسختيها العربية والقشتالية ، ونشرها في بحث ظهر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد (المجلد الثاني — ١٩٥٤) .

ستة أشهر لم يفعـل خلالها شيئاً سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة ، وهو مـا كانت تسعى إليه قشتالة مذ قامت مملكة غرناطة .

والواقع أنّ قشتالة حققّت بهذا العقد أكبر أمنية قديمة لها ، وهذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية في مملكـة غرناطة في تلك الأيام الحرجة الدقيقة من حياتها .

وعلى أثر وفاة السلطان يوسف ، اتّفقت الأحزاب كلّها على ردّ الأمـر السلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر إلى عقد السّلم مع ملك قشتالة ، فعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عام ، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضي غرناطة الشرقية ، فردّهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبدالبر زعيم بني سراج ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (٨٣٨ هـ - ١٤٣٤ م) .

وفي العام التالي ، سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين ، في أحواز غرناطة ووادي آش ، وهزمهم غير مرّة ، ثم عاد الاسبان فأغاروا على بسطة ووادي آش ، واحتلّوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوّة كبيرة من الاسبان بقيادة حاكم لبلة ، على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا الاسبان وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (٨١٠ هـ - ١١٣٦ م) . ثم نشبت بعد ذلك بين المسلمين والاسبان موقعة أخرى على مقربة من كازورك ، أصيب الفريّقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكنّ قائدهم الفارس ابن سراج . وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلا في المعركة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطي بظرفه وبارع فروسيته (٢٩) .

(٢٩) Lafuente Alcantra , ibid; V. 111. P. 147 — 150.

وهكذا استمرّ الصراع بضعة أعوام سجالا، بين المسلمين والاسبان، ولما رأى الاسبان كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم، لجأوا إلى السكينة حيناً وأرسل السلطان الأيسر في اواخر عهده الى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة الاسبان على أراضي مملكته وهذه أول مرة تتّجه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر، وقد كانت حتى ذلك الحين تتجه دائماً إلى ملوك العدوة. وكانت حوادث غرناطة يومئذ تنذر بتطوّرات جديدة مزعجة. ذلك أنّ السلطان الأيسر بالرغم من حسن بلائه ضد الاسبان لم يحسن السيرة في الداخل، ولم ينجح في اجتذاب شعبه، وكان خصومه من السادة الفرسان مَن يلوذ بحماية قشتالة، وعلى رأسهم الأمير يوسف ابن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني وابن عم الأيسر، وهو المعروف في التواريخ القشتالية: «بابن إسماعيل»، وذلك لأنّ نسبه ينتهي إلى السلطان أبي الوليد إسماعيل الذي تولى العرش سنة (٧١٢ هـ)، وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الناقمين في المرية يناصر الأمير محمد بن نصر بن محمد الغني بالله، وهو المعروف بالأحنف وكان الأحنف قد نجح في دخول غرناطة سراً مع نفر كبير من انصاره، واخذ يعمل على اذكاء الفتنة، فلما آنس سنوح الفرصة، ثار في عصبته واستولى على الحمراء والحصون المجاورة لها، وقبض على الأيسر وآله وزجّهم في السجن، ونادى بنفسه ملكا وذلك في أوائل سنة (١٤٤١م) أو أوائل سنة (١٤٤٢م) حسبما تدلّ على ذلك وثيقة عربية، هي عبارة عن خطاب موجّه منه إلى ملك قشتالة في شهر ذي القعدة (٨٤٦ هـ — آذار — مارس ١٤٤٣ م)، يشير فيه إلى بعض المشاكل القائمة بين البلدين، ويطالب باطلاق سراح سفيره المعتقل في قشتالة (٣٠)

ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقرّ الأمور، وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قويّ من الزعماء والشعب، ويتزعمّ هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبدالبر زعيم بني سراج. وكان يقيم في حصن مونتي فريو في شمال غربي غرناطة ويؤيد

(٣٠) نشر نص هذا الخطاب مع صورته في كتاب: نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر — (٧٦ — ٧٨) — تطوان.

ولاية الأمير يوسف (ابن إسماعيل) المقيم في بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار هذا الأمير من إشبيلية إلى غرناطة ، ومعه سرية من الفرسان الاسبان أمده بها ملك قشتالة. والظاهر أن ابن إسماعيل استطاع التغلب على الأحنف واحتل الحمراء ، وحكم مدى أشهر قلائل . ولكن الأحنف عاد وتغلب عليه واسترد عرشه (أوائل سنة ١٤٤٦ م) ، ثم هاجم الأحنف اراضي قشتالة ، وهاجم قلعة بني موريل وقلعة ابن سلامة وقتل من فيهما من الاسبان (١٤٤٦ م) ، وسير في الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن إسماعيل . وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراغون وقشتالة ، فأرسل إلى ملك أراغون يعرض عليه محالفته ضد قشتالة ، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض الاسبان من ناحية مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم هزيمة شديدة (١٤٥٠ م). ثم عادت قواته تكرر الاغارة والعيث في أرض الاسبان وتشغل قواتهم . وكان ابن إسماعيل يقيم أثناء ذلك في حصن مونتي فريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة، وغزوات الاسبان من جهة أخرى بقوى غرناطة وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه ، يثير غضب الشعب بطغيانه وقسوته وعنفه ، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لاسقاطه ، لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد .

٦ـ السلطان يوسف الخامس (ابن اسماعيل) وحوادث ايامه

عاد ملك قشتالة بعد أن سوى خلافه مع أراغون إلى التدخل في شئون غرناطة ، فزود ابن إسماعيل ببعض قواته. وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين في ظاهر غرناطة معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الأحنف وفراره ، فدخل ابن إسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك في سنة (١٤٥٤م) . وفي بعض الروايات الأخرى أن السلطان الأحنف استمر في الحكم حتى سنة

(١٤٥٨م)، ثمّ خلفه في الحكم الأمير سعد بن علي حفيد السلطان يوسف الثاني واستمرّ في الحكم أربعة أعوام. ثمّ عزل في سنة (١٤٦٢م) وأعيد السلطان يوسف الخامس (ابن اسماعيل وحكم حتى سنة (١٤٦٢) (٣١).

وكان السلطان ابن اسماعيل أميراً عاقلاً حازماً عادلاً، محباً للاصلاح والاعمال الإنشائية، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن، واقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور. وكان فارساً بارعاً يشترك بنفسه أحياناً في مباريات الفروسيّة. ولأول عهده أرسل الى ملك قشتالة خوان الثاني يؤكد طاعته، وساد السلم لمدة قصيرة بين المسلمين والنصارى، ولكن خوان الثاني توفي بعد أشهر قلائل، وخلفه ولده هنري الرابع. وأبى ابن إسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة الجديد محاولاً أن يكتسب الشعب إلى جانبه، وأن يوطّد مركزه. وسيّر بعض قوّاته في نفس الوقت، فأغارت على الأراضي القشتالية، وأصرّ ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته، واعتزم الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة، فسار إلى أراضي غرناطة في جيش ضخم وعاث فيها، وانتسف المروج والضياع، وقتل وسبى من أهلها جموعاً كبيرة، ولقيه العام التالي إلى عيثهم في أراضي المسلمين، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيّان وأوقعوا هنالك بالاسبان، واستمرّت هذه المعارك مدى حين سجالاً بين الفريقين وكان الاسبان قد استولوا في تلك المدة المضطربة من حياة المملكة الإسلامية على عدّة من القواعد والثغور الإسلامية، بعضها اختياراً بتنازل سلاطين غرناطة، والبعض الآخر باحتلالها قسراً. وكانت أعظم ضربة أصابت غرناطة في عهد السلطان ابن اسماعيل، سقوط ثغر جبل طارق في يد الاسبان. ففي سنة (١٤٦٢)م سارت إليه قوّة من القشتاليين بقيادة الدوق مدينا سيدونيا واستولت عليه بطريق المفاجأة. وكان سقوط هذا الثغر المنيع في يد الاسبان، أول خطوة ناجعة في سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب، والحيلولة دون قدوم الامدادات اليها من وراء

(٣١) Seco de Lucana : Una Conde : ibid ; V. 111. P. 201 — 202.

على أنّ خطر القوات الإسلامية القوية فيما وراء البحر، كان قد خبا منذ بعيد، وأخذت دولة بني مرين القوية، تجوز مرحلة الانحلال والسقوط، وكان آخر ملوكهم السلطان عبدالحق، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المريني في سنة (٨٢٣ هـ — ١٤١٥ م)، وفي عصره ساد الاضطراب والتفكك في أنحاء المملكة، واستبدّ وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي بالدولة. وكان بنو وطاس ينتمون إلى بطن من بطون بني مرين، وينافسون في طلب الرياسة والملك فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبدالحق، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم وفي مقدمتهم وزيره يحيى، ونجا قسم منهم وتفرقوا في مختلف الأحياء. وأسلم عبدالحق زمام دولته إلى يهود، فبغوا وعاثوا بالدولة، فغضب الشعب على مليكه، واضطرمت الثورة، وعزل عبدالحق وقتل (٨٦٩هـ—١٤٦٤م)، وانتهت بمصرعه دولة بني مرين، بعد أن عاشت زهاء مائتي عام واستولى على تراث بني مرين وملكهم، بنو وطاس خصومهم القدماء، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولي على فاس في سنة (٨٧٦ هـ—١٤٧١ م) (٣٢). وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة، بيد أنها لم تكن من القوّة والمنعة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس، في سبيل الجهاد والنجدة، أسوة بما كانت تعماه دولة بني مرين القويّة الشامخة.

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت وحيدة في مواجهة عدوّها القوي، دون حليف ولا ناصر. ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال، بدّاً من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه، وتأدية الجزية اغتناماً للمهادنة والسلم. وكانت مملكة غرناطة، تجوز في هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الاضطراب الداخلي، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر، إضرام المنافسة بين العرش وبين الاسر النبيلة القويّة، مثل بني سراج، وبني أضحى، وبني الثغرى وغيرهم، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر

(٣٢) الاستقصا (١٤٨/٢ و ١٥٠ — ١٥١ و ١٦٠).

القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء في البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت سنة (١٤٦٢ م) فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن اسماعيل ان يقضي على نفوذ بني سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها ، وهكذا كانت نار التفكك تعمل عملها المشئوم(٣٣). ومع أنّ غرناطة تمتّعت بمزايا الهدنة الخادعة التي عقدتها مع قشتالة لمدى قصير ، فقد كان من الواضح أنّ المملكة الاسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الانحلال الأخير .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى وقع انقلاب جديد في ولاية العرش الغرناطي ذلك أنّ الأمير سعداً عاد فهاجم الحمراء مع انصاره ، وانتزع العرش لنفسه سنة (١٤٦٣ م) وفر السلطان ابن اسماعيل وخصوم السلطان الجديد ، وهنا تلقي الرواية الاسلامية بعض الضوء على ماتلا من الحوادث في غرناطة وهذه الرواية هي رواية مؤرخ ورحّالة مصري زار المغرب والاندلس في تلك الفترة هو عبدالباسط بن خليل الحنفيّ ، دوّنها في مؤلفه المسمى : «كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» (٣٤) ، وهو يحدّثنا عن بعض أخبار الأندلس التي سمعها أثناء زيارته للمغرب وغرناطة سنة (٨٧٠ هـ) ، ويروى لنا ما وقف عليه من الحوادث الأندلسيّة حتى سنة (٨٨٧ هـ – ١٤٨٢ م) .

يقول الرحالة المصري : إنّ سلطان الاندلس في سنة (٨٦٧ هـ – ١٤٦٢/ ١٤٦٣ م) كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ، وأنه ما كاد يجلس على العرش ، حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض بني سراج ، وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ، فسار سعد إلى مالقة ، وحكم أبو الحسن مكانه . وفي العام التالي (٨٦٨ م) لما اشتد ضغط الاسبان على الاندلس عاد

(٣٣) يرى المستشرق جانيجوس ان منافسات بني سراج وبني الثغر ، كانت من أهم اسباب التعجيل لسقوط غرناطة . Gayangos. ibid V. I. P. 315

(٣٤) تحفظ نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمي Borg. 728 & 729 ، وهي في مجلدين : الأول في ٢٥٩ ورقة كبيرة ، والثاني في ٦٦ ورقة ، وترد أخبار الاندلس مبعثرة في حوليات المجلدين المتوالية .

أبو الحسن ، فعقد الصلح مع أبيه ، وأطلق سراحه ، واختار سعد السكن بالمرية فلم يعترض ولده ، ولم يلبث أن توفى في أواخر هذا العام وعندئذ خلص العرش لأبي الحسن . ولكن حدثت بعد ذلك منازعات حول ولاية العرش بين أبي الحسن وأخيه أبي الحجاج يوسف ، ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة يوسف بعد ذلك

وفي ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح سلطان العثمانيين على القسطنطينية سنة (١٤٥٣) ، وانهار هذا الصرح المنيع الذي يحمي أوروبا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام. وانساب تيار الفتح العثماني إلى جنوب شرقي أوروبا، يكتسح في طريقه كل مقاومة ، وروعت أوروبا النصرانية لهذا الخطر الجديد الذي يهدد حريتها وسلامتها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . نردد هذا الصدى في إسبانيا النصرانية، حيث كانت مملكة غرناطة ماتزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة في إسبانيا ، وقد تغدو في الغرب نواة الخطر الإسلامي الداهم ، التي بدت طلائعه في الشرق على يد الغزاة الترك . ومن ثم ، فقد كان طبيعياً أن تجيش إسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة وان يذكي هذا الخطر الجديد اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تحوزه مملكة غرناطة يومئذ من فتن داخلية ، وما كان يفت في قواها من عوامل الانحلال السياسي والاجتماعي، فقد كانت تعتبر دائماً في نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره، وكان أشد ما تخشاه إسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الاسلامي تنساب من وراء البحر ، كما حدث في الحقبة الأخيرة غير مرة . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الأسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدره إسبانيا النصرانية . وكانت قشتالة في تلك الآونة بالذات، تشغل بمنازعاتها الداخلية، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد إسبانيا النصرانية في مملكة قوية متحدة . وقد كانت خلال الاحداث التي توالت عليها في تلك المدة ، تجيش دائماً بنزعتها الصليبية المأثورة . فلما تحققت الوحدة ، واستقرت الأحوال ، واجتمعت الموارد

أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الاسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القويّة إسبانيا النصرانيّة ، في الأفق قوية سانحة(٣٥) .

نهاية دولة الأندلس

٨٦٨ هـ - ٨٩٧ هـ / ١٤٦٣ م - ١٤٩٢ م

الأندلس على شفا المنحدر

ا- على ابو الحسن واحداث ايامه

كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب في الواقع وئيدة ، ولكن مؤكدة. ولم يك ثمة شك، في أنّ هذه المملكة الإسلامية الصغيرة التي يسودها الخلاف والتفرّق ، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطء، وأنّ هذه الأمّة الأندلسية التي أخذت تنكمش في مدنها وثغورها القليلة ، كانت تنظر إلى المستقبل بعين التوجّس والجزع ، وأنّ هذه الحياة الباهرة الساطعة التي كانت تحياها بين آن وآخر، كلما تربّع على العرش أمير قويّ رفيع الخلال، لم تكن إلاّ سويعات النّعماء الأخيرة في حياة أمة عظيمة خالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الاندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور .وكمثال على ما كان يتوقعه رجالات الأندلس : ما توقعه ابن الخطيب (٣٦) والمؤرخ ابن خلدون (٣٧)، ولكن لم ينصت أحد إلى توقعات المفكرين ، فكانوا كنبيّ في الصحراء .

---

(٣٥) نهاية الاندلس (١٤٦ - ١٥٥) .

(٣٦) انظر توقعاته في ازهار الرياض (١/٦٤) ونفح الطيب (٢/٥٧١) مثلا وازهار الرياض (١/٦٦) .

(٣٧) انظر ابن خلدون (٤/١٧٨) و (٧/٣٧٩) .

ولما توفي السلطان سعد بن يوسف النصري في أواخر سنة (٨٦٨هـ — ١٤٦٣م) كان ولده الأكبر علي أبو الحسن الملقب بالغالب بالله (٣٨) متربعاً على عرش غرناطة قبل ذلك بأكثر من عام. وكان أبو الحسن يومئذ فتى في نحو الثلاثين من عمره، لأنه ولد قبل سنة (٨٤٠هـ)، بيد أنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجّاج والسيد أبو عبدالله محمد المعروف: «بالزغل»؛ وقد توفي يوسف قبل مدة، وبقي الزّغل ليخوض حياة حافلة بالاحداث والمحن. وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم، يعشق الحرب والجهاد، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة في أرض الاسبان، وما كاد يستقرّ في عرشه، حتى أبدى همّة فائقة في تحصين المملكة، وتنظيم شئونها، وبثّ فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة، واستطاع أن يستردّ عدّة من الحصون والقواعد التي استولى عليها الاسبان. وتولّى وزارته وزير أبيه من قبل، القائد أبو القاسم ابن رضوان بنيغش(٣٩)، وكان هذا الوزير مثل سلفه الحاجب رضوان النصري، سليل أسرة نصرانية، أُسِرَ جدّه في بعض المعارك، وربّي في كنف الدار السلطانية، وتبوأت أسرته بين الأسر الغرناطية مكانة رفيعة، واشتركت في كثير من حوادث غرناطة السياسية، وتولّت الوزارة.

وفي أوائل حكمه، خرج عليه أبو عبدالله (الزّغل) (٤٠)، وكان يومئذ والياً لمالقة، وكان يضارعه في الشجاعة والجرأة وحب الجهاد، ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنري الرابع يستنصره على أخيه، ولقيه في محلته في ظاهر

(٣٨) انظر نفح الطيب (٢/٦٠٧).
(٣٩) أصله اسباني (Los Venegas).
(٤٠) الزغل: الشجاع أو الباسل، والمصدر: زغلة، وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته اتم الانطباق. انظر دوزى Supp. aux Dict arabes, V. 11. P. 594.

سنة (٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م)، فوعده بالعون والتأييد. وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالاغارة على اراضي قشتالة (١٤٧٠م)، ثم عاد في العام التالي فغزاها مرة أخرى، وانتزع من الاسبان بعض المواقع التي استولوا عليها. وشغل أبو الحسن في الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبي عبدالله الزغل الثائر عليه، وكان النضال سجالاً بينهما، وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض الاسبان، وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخليّ، ذلك حتى وفاة ملكهم هنري الرابع في سنة (١٤٧٤ م).

وفي تلك الأثناء، خرجت مالقة عن طاعة أبي الحسن، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطي، وانضمّ إليه كثير من القوّاد والأجناد، فسار أبو الحسن إلى مالقة، وحاصرها غير مرّة، ولكنه لم يفلح في إخماد الثورة. واستدعى القادة الثائرون أخاه أبا عبدالله محمد بن سعد الزغل، وكان يومئذ بقشتالة، واعلنوه ملكاً عليهم، وانقسمت المملكة بذلك إلى شطرين متخاصمين.

ولما تفاقم النزاع بين أبي الحسن وأخيه أبي عبدالله، ولم يحسم بينهما السيف، ووضحت لهما العواقب الخطيرة التي يمكن أن تترتّب على هذه الحرب الأهلية، جنح الفريقان إلى الرويّة، وآثرا الصلح والتّهادن، فعقدت الهدنة بين الأخوين، على أن تحترم الحالة القائمة، فيبقى أبو عبدالله الزّغل على استقلاله بمالقة وأحوازها، ويستقرّ أبو الحسن في عرش غرناطة وما إليها وعقدت في نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والاسبان.

وفي هذه الآونة، التي اخذت عوامل التفرّق تمزّق أوصال المملكة الاسلامية الصغيرة، كانت إسبانيا النصرانية تخطو خطوتها الأخيرة نحو الاتحاد النهائي، وذلك باقتران فرديناند ولد خوان الثاني ملك أراغون بايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة في سنة (١٤٧٩ م) وتبوّء فرديناند بعد ذلك عرش أراغون، وهكذا اتّحدت المملكتان الاسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية، وأصبحت إسبانيا النصرانية قوّة

عظيمة موحّدة، وكان تفرّقها من قبل يتيح للأندلس أوقاتاًمن السّلام والأمن، ولكن الأندلس، وقد صارت إلى ماصارت إليه من الانحلال والضعف ، أضحت تواجه وحدها اعظم قوّة واجهتها في تاريخها (٤١) .

وحاول أبو الحسن أن يجدّد الهدنة مع القشتاليين، ليتفرّغ لأعمال التّحصين والانشاء ، وكان يلوح في البداية أنّ العلائق بين الفريقين تسير نحو التفاهم والسلم . وهناك ما يدلّ في الواقع على أنّه كان يقوم يؤمئذٍ بين مملكة غرناطة، وبين قشتالة صلح ثابت حسبما يؤيّد ذلك اتّفاق عقداه يومئذ على إجراء التحكيم فيما وقع من كلّ منهما على أراضي الآخرين من ضروب العدوان التي ترتّب عليها القتل والأسر والحرق، سواء في البر أو البحر (٤٢) وعلى هذا فقد أرسل السلطان أبو الحسن في أوائل سنة (٨٨٣هـ/١٤٧٨ م) إلى ملك قشتالة، يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما . وكان فرديناند وإيزابيلا يقيمان يومئذ في اشبيلية، فوافقا على ماطلبه أبو الحسن، ولكن بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتها، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية من المال والأسرى التي كان يؤديها السّلاطين السّالفون . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان ابي الحسن يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية . فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإباء ، وأنذر السفير القشتالي بانّه ليس لديه سوى الحرب والجهاد . ولم يمض سوى قليل ، حتى أغار القشتاليون على حصن بالنقة (فيلالونجال) واستولوا عليه ، وعاثوا في أحواز رندة ، وردّ أبو الحسن على ذلك باعلان الحرب على قشتالة ، وزحف تواً على بلدة (الصخرة Zahara) وهي قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية في شمال غربي مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب ،

---

(٤١) انظر مراة المحاسن ــ (١٤٢) ــ ١٣٢٤هـ .

(٤٢) انظر وثيقة الاتفاق Archivo general de Simancas, p. R. 11 — 4

وفيها يصف فرديناند وايزابيلا بما يأتي : « السلطان المعظم الكبير الشهير الاصيل دون هرندة ، والسلطانة الكبيرة الشهيرة دوني قشبيل »

فباغتها أبو الحسن ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها وسبى سكانها (كانون الثاني — ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر في تلك المعركة الأولى، وبالرغم مما بثه هذا الظفر في طوائف الشعب من الغبطة والحماسة ، فقد عُدَّ عند بعض العقلاء تصرفه اعتداءً لامسوّغ له وتوجسوا شراً من عواقبه وتقول الرواية القشتالية : إنّ فقيهاً زاهداً شيخاً عرف بنبوءاته، كان بين الوفود التي ذهبت غداة هذا الانتصار إلى قصر الحمراء ، وأنّه صاح في وجه السلطان قائلاً : «ويل لنا.لقد دنت ساعتك يا غرناطة، وسوف تسقط أنقاض الصخر فوقه رؤوسنا ، وقد حلّت نهاية دولة الاسلام بالأندلس (٤٣) »على أنّ هذا الظرف المؤقّت كان له أعظم الأثر في إحياء معنويات الشعب الغرناطي ؛ ولاح لاسبانيا النصرانية يومئذ أنّ الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوّة. ولكن هذا النّصر الخلّب لم يطل أمده ، ذلك لأنّ أبا الحسن لم يلبث أن ركن إلى الدّعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السّخط والغضب بما ارتكبه في حقّ الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدّة، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية، وما أثقل به كاهلهم من صنوف المغارم ، وما أُغرق فيه من صنوف اللّهو والعبث ، كان وزيره أبو القاسم بنيغش يجاريه في أهوائه وعسفه، ويتظاهر أمام الشّعب بغير ذلك . وهكذا عادت عوامل الفساد والانحلال والتفرّق إلى مملكة غرناطة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة (٤٤) .

وكان السّلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمّه السلطان الأيسر (٤٥) اسمها عائشة، وهي أم أبي عبدالله آخر ملوك غرناطة .وتحتلّ شخصية عائشة الحرّة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس في تاريخ تلك الأيام الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير الاعجاب والاحترام ، ومن الأسى والشجن، قدر

(٤٣) Lafuente Alcantra ; ibid; V. 111. P. 202 — 205. وكذلك Conde : ibid, V. 111. P. 210, 211

(٤٤) انظر كتاب : اخبار العصر في انقضاء دولة بنى نصر .

(٤٥) اخبار العصر : طبعة ميللر (٦) وطبعة نطوان (٥) .

ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة ، التي تذكرنا خلالها السامية ومواقفها الباهرة وشجاعتها المثلى إبّان الخطوب المدلهمّة، بما نقرأه من أساطير البطولة القديمة من روائع السيَر والمواقف .

وكانت عائشة (الحرّة) ملكة غرناطة في ظل ملك يحتضر، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض ، وقد رزقت من زوجها الأمير أبى الحسن بولدين هما : أبو عبدالله محمد، وأبو الحجّاج يوسف. وكانت روح العزم والتفاؤل التي سرت في بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية الأمل في إنقاذ هذا الملك التالد . كانت عائشة ترى السير الطبيعي أن يؤول الملك إلى ولدها، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أنّ الأمير أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدّعة ، واسترسل في أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن، تعرفها الرواية الاسلامية باسم: «ثريا » الروميّة . وتقول الرواية الاسبانية ، إنّ ثريا هذه، واسمها النصراني : « إيزابيلا »، وتعرفهـا الرواية أيضاً باسم: «زريدة» ، كانت ابنة قائد من عظماء إسبانيا، وهو القائد « سانشو خمنيس دي سوليس»، وإنّها أخذت أسيرة في بعض المعارك ، وهي فتيّة ، وأُلحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فاعتنقت الاسلام وتسمّت باسم : « ثريا» و«كوكب الصباح » ، فهام بها الأمير أبوالحسن، ولم يلبث ان تزوّجها واصطفاها على زوجته الأميرة عائشة التي عرفت حينئذ بالحرّة تمييزاً لها من الجارية الروميّة، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها(٤٦) ، ويقول لنا المؤرخ المعاصر (هرناندو دي بايثا Hernando de Baeza) : وإنّ السلطان أبا

(٤٦) Jrving : Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الاسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى : ان ثريا كانت ابنة حاكم مرتش النصرانى : Conde ; ibid, V. 111. P. 242 ولكن الرواية العربية تكتفى بالقول بان ثريا كانت جارية رومية ، انظر نفح الطيب (٦٠٨/٢) واخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر طبعة ميللر .

الحسن كان يقيم يومئذ مع زوجه الفتية الحسناء في جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش ، بينما كانت تقيم الحرّة وأولادها في جناح بهو السباع (٤٧).

ولم يكن زواج الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم في قصور الأندلس،وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات نصارى، مثل عبدالرحمن الناصر ، وحفيده هشام المؤيّد ، وكذلك ولدبعض الأمراء من بني نصر ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن إسماعيل النّصري . ولم يكن الزواج المختلط نادراً في المجتمع الأندلسي الرفيع ، ولاسيما منذ أيام الطوائف، كان كثيرمن الأكابر والأشراف يتزوّجون بفتيات من النصارى سواء كنّ من السبايا أم من الأحرار ،ولم يكن العكس نادراً أيضاً فمنذ ته الى سقوط القواعد والثغور في يد النصارى ، كثر الزواج بين المدجّنين وبين النصارى ، وفقد المدجّنون بمضيّ الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا في المجتمع النصراني . ونرى بين زعماء الطوائف بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصرانيّ ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلّم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلّد السلاح القشتالي ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الاسبان يعرفونه بالملك : «دون لوبي» .

ولم يكن ثمة ريب في خطورة الآثار الاجتماعية التي يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد أهمّ العوامل التي أدّت إلى انحلال المجتمع الاسلامي ، وانحلال عصبيّة الدولة الاسلامية . كذلك لم يكن ثمةّ ريب في أنّ هذه الآثار الهدامة ، كانت أشدّ خطراً وأعمق وقعاً وقت الانحلال العام .

---

(٤٧) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول : ان ثريا كانت جارية يونانية أى رومية ، انظر
Les Cosas Garanada. ( ). History of Ferdinand and Isabella. p. 219
(ص ٦٥) .

وكان أبو الحسن قد شاخ وقد أثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة في يد زوجة الفتية الحسناء ، وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة شديدة الذكاء والاطماع ،وكان وجود هذه الأميرةالأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالنفوذ والسلطان في هذه الظروف العصيبة التي تجوزها المملكة الاسلامية ، عاملاً جديداً في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا في الواقع تتطلّع إلى أمر أبعد من السيطرة على الملك الشيخ ، ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين هما : سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما . وقد بذلت كلّ ما استطاعت من صنوف الدسّ والاغراء لابعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كلّ نفوذ وحظوة وحرمان ولديها محمد ويوسف من كلّ حق في الملك ؛ وكان أكبرهما أبو عبدالله محمد وليّ العهد المرشّح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همّتها ، فمازالت بأبي الحسن ، حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كلّ عطف ورعاية ، ثمّ ضاعفت ثريا سعيها ودسّها ، حتى أمر السّلطان باعتقال عائشة وولديها فزجّوا في برج قمارش أمنع أبراج الحمراء ، وشدّد في الحجر عليهم وعوملوا بمنتهى الشدّة والقسوة .

وأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ،وكان ذلك نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين : فريق يؤيّد الأميرة وفريق يؤيّد السلطان وحظيّته ، واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ الى حين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتّد السخط على أبي الحسن وحظيّته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حدّ فحرّضت الملك على إزهاق ولده أبي عبدالله عثرة آمالها .

وكانت عائشة وافرة العزم والشجاعة، فلم تستسلم إلى قدرها، بل عمدت الى الاتصال بعصبتها وانصارها وفي مقدمتهم بنو سراج، اقوى اسر غرناطة، وأخذت تدبّر معهم وسائل الفرار والمقاومة. ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط، ويقال إنّه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء. ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية الحسن، قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م)، استطاعت الأميرة أن تفرّ مع ولديها محمد ويوسف بمعونة بعض الأصدقاء المخلصين، والرواية الاسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمّهما (٤٨) ولكن الرواية القشتالية تحدّثنا عن فرارها مع ولديها. وتقدم إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة فتقول: إنّ بعض الخدم المخلصين، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر مما يلي برج قمارش، وإنّ الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق في جوف الليل (٤٩).

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفرّ من معتقلها، واختفى الفارُون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضمّ إليهم كثير من أهل غرناطة. وظهر ولدها الأمير الفتى محمد أبو عبدالله في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها، بعيداً عن غرناطة، يدافع النصارى عن أسوار لوشة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة.

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث في مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام، فلما اضطرمت نار الحرب بين المسلمين، ولاحت الفرصة للغزو سانحة، قرّر بدء

(٤٨) أخبار العصر (١٢) ونفح الطيب (٢/٦٠٩).
(٤٩) L. del marmal ; ibid ; 1. Cap. XII.

الحرب على غرناطة. وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من الهدنة، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة. فسيّر حملة قويّة إلى الأندلس، سارت منحرفة من جهة الغرب. ورأى القوّاد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة الحامة (الحمة) التي تقع في قلب الأندلس، جنوب غربّ غرناطة، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها، ولأنّ الإستيلاء عليها، يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً. وكانت الحامة مدينة غنيّة، ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التي كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمرائها. ونجحت الخطة واستطاع النصارى مباغته الحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جنح الظلام ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومتها الباسلة، وأمعنوا في المسلمين قتلاً وأسراً وسبيا (المحرم سنة ٨٨٧ هـ — ١٤٨٤ م) وهرع السلطان ابو الحسن في قواته لأنقاذ الحامة واستردادها؛ وحاصرها بشدّة، ولكنه لم يستطيع اقتحامها، ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما علم أنّ ملك قشتالة يتقدم لانجادها في جيش قويّ ضخم(٥٠)، ولم تمضِ أشهر قلائل، حتى زحف ملك قشتالة على لوشة(٥١) الواقعة على نهر شنيل في شمال غربي الحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ودافعت عنها حاميتها اروع دفاع بقيادة قائدها الامير الشيخ على العطار، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة في ذلك العصر(٥٢). وسار أبو الحسن بقواته مسرعاً لانجاد لوشة، وانتهى الأمر بأن رُدّ النصارى بخسارة فادحة في الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ هـ — تموز — يوليه ١٤٨٢ م)، وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى بعض «الأنفاط» التي تستعمل لحصار المدن(٥٣).

(٥٠) أخبار العصر (٦ و ٩) وكذلك Prescoit ; ibid ; P. 206 — 210

(٥١) هي بالاسبانية (Loja) وهي بلد الوزير ابن الخطيب.

(٥٢) تنوه الرواية القشتالية ببطولة هذا القائد المسلم، وتعرفه باسم: ((Aliatar)) انظر رواية Hermando de Baeza المنشورة بعناية ميللر ضمن كتاب: أخبار العصر (ص ٧٨).

(٥٣) أخبار العصر (١١).

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه ، حتى تجهّم الجوّ من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرزه من نجاح ؛ وسرعان ما نشبت الثورة في غرناطة، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبي عبدالله ؛ ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة ، نفرّ الملك الشيخ الى مالقة ، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف « بالزّغل » ، أي الشجاع الباسل، يدفع عنها جيشاً جرّاراً سيرّه ملك قشتالة للاستيلاء عليها(٥٤)

٢ ــ ابو عبد الله محمد بن على ابى الحسن واحداث ايامه

وجلس أبو عبدالله محمد(٥٥) مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧ هـ) ، وأطاعته غرناطة ووادي آش وأعمالها ، وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبدالله يومئذٍ فتى في نحو الخامسة والعشرين(٥٦) . وكان فرديناند الخامس عقب هزيمته أمام لوشة ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها ، وكانت أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقعون للاستيلاء عليها لاتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكنّ المسلمين كانوا على أتمّ أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى في عدّة معارك دمويّة في الهضاب الواقعة فيما بين مالقة وبلش (Velez) ، فهزم النصارى في كلّ

(٥٤) نهاية الاندلس (١٧٤ ــ ١٨٨) .

(٥٥) يعرف السلطان ابو عبدالله في الرواية القشتالية والافرنجية بوجه عام باسم : (Boabdil) محرفا عن ابى عبد اللـه . وتورد الوثائق القشتالية الرسمية المتعلقة بسقوط غرناطة اسمه على النحو التالي (Muley Baaudili Boudili Beaudili) ويورد مارمول اسمه مصححا (Abi Abdili, Abi Abdala, Abdilehi)

(٥٦) يشير المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الى هذا الانقلاب ، ويندد بسلوك سلاطين غرناطة في الوثوب بعضهم على بعض بقوله : « وهو غالب عادتهم بتلك البلاد ، مع الاباء والاولاد ، بل والاجداد ، انظر (Al-Andalus ; Vol. 1. 1933 ; Fasc. 2) .

مكان وردّوا بخسائر فادحة .وخرج الأمير محمد بن سعد (الزّغل) في قوّاته من مالقة ولقي النصارى على مقربة منها ، ونشبت بين الطرفين معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة،وقتل وأسر منهم عدّة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ هـ آذار–مارس – ١٤٨٣ م)(٥٧) . وتعرف هذه المعركة « بالشرقية » لوقوعها في المنطقة المسماة بذلك في شرق مالقة وكان منظم هذا الدفاع الباهر كله أبو عبدالله «الزّغل» . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع في جنبات الأندلس، فانتعشت الآمال ، وسرت الحماسة في كلّ مكان ، وهبّت على غرناطة روح جديدة من الاستبشار والنصر .

واعتزم ملك غرناطة الفتى أبو عبدالله محمد،أن يحذو حذو عمه الباسل في الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب هزيمتهم ، فخرج في قواته في شهرربيع الأول سنة (٨٨٨هـ نيسان أبريل ١٤٨٣م) متجها نحو قرطبة شمال غربي غرناطة ، واجتاح في طريقه عددا من الحصون والضياع ، وهزم النصارى في عدة معارك محلية ، ثم ارتد مثقلا بالغنائم • وفي طريق العودة ، أدركه النصارى في ظاهر قلعة اللسانة (Luccena) (٥٨) وكان يزمع حصارها • ونشبت بين الطرفين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون الى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان من بين الأسرى السلطان أبو عبدالله نفسه (٥٩) عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه الى قائدهم الكونت وى كابرا (قبره) فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله باحدى الحصون الغربية تحت حراسة

---

(٥٧) اخبار العصر (١٣) .

(٥٨) هى بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم في نطاق ولاية قرطبة ، جنوب شرقي مدينة قرطبة .

(٥٩) اخبار العصر (١٤) ، ويصف عبد الباسط بن خليل المصرى في حولياته هذه المعركة : بالكارثة العظمي والداهية الطماء .

مشددة ، وأخطر في الحال ملكي قشتالة بالنبأ السعيد ، فأمر فردينا ند أن يؤتى بالأسير الملكي الى قرطبة ، وأن يستقبل استقبال الأمراء ، فأخذ أبو عبدالله وأصحابه الى قرطبة في حرس قوي ، واحتشد أهل قرطبة لرؤية موكب الملك المسلم ، وكان أبو عبدالله يرتدي ثوباً من القطيفة السوداء ، ويمتطي حصاناً أسود عليه سرج ثمين ، وكان وجهه يشع كآبة . وأخذ الملك الأسير أولا الى دار الاسقف المواجه للمسجد الجامع . ثم أخذ بعد ذلك الى أحد القلاع الحصينة ، وعوامل هناك باكرام وحفاوة ، وأقام في أسره مكتئباً ينتظر يوم الخلاص .

وعاد المسلمون الى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقتهم الهزيمة وفتت في عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن والأسى الى حرم الأمير وقرابته ، و لم يحتفظ فيها بهدوئه وسكينته سوى أمه الأميرة عائشة . واجتمع الأمراء والكبراء والقادة ، وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير ، ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الأعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلا ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبدالله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد الى المنكب فأقام بها حيناً حتى توفى (٨٩٠هـ ــ ١٤٨٥م) ، وجلس الزغل على العرش يدير شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها .

أما السلطان أبو عبدالله محمد ، فلبث يرسف في أسره عند النصارى . وأدرك ملكا قشتالة في الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربهما في مملكة غرناطة ، وبعد امعان البحث والتدبير ، رؤى أن يفرج عن الملك الاسير لقاء أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها ، لأن هذا الافراج من شأنه أن يزيد في اضطرام

الحرب الاهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك في اضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم . وبذل أبو الحسن حين عوده الى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عددا من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير الى حين وبذلت الاميرة عائشة من جهة أخرى مجهودا آخر لانقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذي يناصره ، وأرسلت الى ملك قشتالة سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ، ليفاوض في الافراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاها . وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي : أن يعترف أبو عبدالله بطاعة الملك فرديناند وزوجته الملكة ايزابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبلا من الذهب ، وأن يفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة ، يختارهم ملكهم ، ثم يطلق بعد ذلك في كل عام سبعين أسيرا لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه ، وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالافراج عن أبي عبدالله فوراً، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الاسلامية ، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه من مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى تم فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الافراج عن السلطان الأسير [٦٠] .

وتختلف الروايات في تاريخ الافراج عن أبي عبدالله محمد ، فتقول بعض الروايات المعاصرة : إنّه أفرج عنه لأشهر قلائل من أسره في أوائل (أيلول — سبتمبر ١٤٨٣م)، ولكن هناك رواية أخرى تقول بأنه استمر في الأسر أكثر

(٦٠) أورد المستشرق (M. Gaspar y Renira) في كتابه :
Arabes de la Corte Nazari de Granada

من عامين ، وإنه لم يفرج عنه إلاّ في أواخر سنة (١٤٨٥ م)أو أوائل سـنة (١٤٨٦ م) (٦١) . وهذه رواية يؤيّدها صاحب أخبار العصر،إذيقول: إنّ العلو أطلق سراحه في أواخر سنة(٨٩٠هـ-١٤٨٥ م)عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة موكلين(٦٢)هذا فضلاً عن أنّه يذكر لنا أنّ أبا عبدالله قد أسر في موقعة أخرى هي موقعة لوشة، كما سيأتي وأنه لم يفرج عنه إلاّ في أواخر سنة (٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م) (٦٣) .

وعلى أيّ حال ، فقد أُفرج عن أبي عبدالله ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق التي تكفل لهما تحقيق سياسة قشتالة في القضاء على مملكة غرناطة ، وبعد أن أتى بالرهائن المشترط تسليمهم . وسار أبو عبدالله وصحبه الذين قدموا لمرافقته،ومعه سرية من الجند القشتاليين،إلى بعض الحصون الشرقية التي قامت بدعوته (٦٤) . ولم يك شك في أنّ عقد مثل هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة في سبيل القضاء على مملكة غرناطة،وقد وضع فرديناند برنامجه المحكم لكي يستغل أسر ملك غرناطة ويستعين به على تنفيذ برنامجه المدمّر . وكان أبو عبدالله أميراً ضعيف العزم والادارة ، قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشيء من الخلال الباهرة التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأيّ الأثمان والوسائل . وقد وجد ملك قشتالة القويّ في ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجّهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيّديه في غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأنّ الصالح مع ملك قشتالة خير وأبقى.وسيّر ملك قشتالة في نفس الوقت

---

(٦١) Gaspar y Renera ; ibid ; P. 27 .

(٦٢) اخبار العصر (١٨) .

(٦٣) اخبار العصر (٢١ - ٢٢) .

(٦٤) اخبار العصر (١٨) .

قواته في أنحاء مملكة غرناطة ، لكي تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الاسلامية . وزحف القشتاليون على منطقة الغربية (غربي ولاية مالقة) في أوائل سنة (٨٩٠هـ) واستولوا على حصن قرطبة وحصن ذكوين وعدة حصون أخرى تقع شمال غربي مالقة في منتصف الطريق بينها وبين رندة ، وبذلك عزلت رندة ، وأصبح الطريق ممهداً للاستيلاء عليها. وعلى أثر ذلك زحف القشتاليون على (رندة) وهي معقل الأندلس في قاصية الغرب وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها ، وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغرى زعيم قبيلة غمارة . ولم يستطع أهل رندة أن يثبتوا طويلاً لعدم استعدادها للدفاع ، لبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقي الأمداد السريع ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمتعتهم ، واستولى القشتاليون على رندة في (جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ — نيسان — أبريل ١٤٨٥ م) ، ثم استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة في تلك المنطقة ، وكان سقوط هذه المدينة الأندلسية التالدة ضربة شديدة للمسلمين ، وبسقوطها انهارت كل وسيلة للدفاع عن منطقة الغربية ، وأصبح القشتاليون بذلك يهددون ثغر مالقة من الغرب (٦٥) وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مكلين ، الواقع شمال غربي غرناطة ، وكان به الأمير ابو عبدالله الزغل في قوة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه. ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان القشتاليون بقيادة الونت دي قبرة الظافر في معركة اللسانة وكادت الدائرة تدور في البداية على المسلمين ، ولكنهم . بذلوا جهد المستميت بقيادة أميرهم الباسل ، وانتهت المعركة بأن رُدَّ الاسبان بخسائر فادحة في الرجال والعدد(شعبان ٨٩٠ هـ — تموز ، يوليو ١٤٨٥ م) وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة (٦٦) . ولكن كان من سوء الطالع انه لم يمضى قليل على ذلك حتى نشبت في غرناطة حرب أهلية جديدة . وكان الملكان الكاثوليكيان قد أطلقا سراح أبي عبدالله

(٦٥) اخبار العصر (١٥) .
(٦٦) اخبار العصر (١٧) .

في تلك الآونة بالذات، بعد أن وقّع معاهدة الخضوع والطاعة كما ذكرنا، والواقع أنّ الحرب الأهلية كانت تضطرم في الأندلس خلال أسر أبي عبدالله، وكان الزغل بعد أن تربّع على عرش غرناطة، يحاول استخلاص الأندلس كلّها لنفسه، وكان الأمير يوسف أبي الحجّاج شقيق أبي عبدالله، قد استقرّ في المرية يحاول منازعة عمه الزّغل، فسار الزّغل إلى المرية، وثار بها انصاره، وغلبوا على خصومهم، وفتحوا له أبواب المدينة، وقُتل يوسف أثناء ذلك، وقُتل يوسف ويقال: إنّ قتله كان بوحي من أبيه أبي الحسن أو عمه الزّغل وما كاد الزّغل يعود إلى غرناطة، حتى اضطرمت الفتنة من جديد. وكان أبو عبدالله حينما أطلق سراحه قد سار الى بعض الحصون الشرقية، فقامت بدعوته، وكان يشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة، وأنّه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم، وأنه يطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته، وكان قد سار إلى منطقة بلش(٦٧) في شرقي بسطة واعلن نفسه ملكاً من جديد.

وكان من الواضح أن اضطرام الفتنة في غرناطة، في هذا الوقت بالذات، لم يكن بعيدا عن وحي أبي عبدالله وحزبه وقام أهل ربض البيازين، وهو حي غرناطة الشعبي، الواقع في شمالها الشرقي تجاه مدينة الحمراء، بدعوة أبي عبدالله. وكان أهل البيازين دائما، عنصرا من عناصر الاضطراب والشغب، وكان لهم دائما ضلع في كل ثورة وفتنة(٦٨). وشغل ملك غرناطة أبو عبدالله الزغل باخماد هذه الفتنة الجديدة عن مقاتلة الاسبان. وبذلك تحقق الغرض الذي يرمي اليه ملكا قشتالة، وكان ذلك في أوائل سنة (٨٩١هـ — أوائل ١٤٨٦م). واشتدت الفتنة، ونصب الزغل على البيازين المجانيق والانفاط، ودافع أهل البيازين عن أنفسهم دفاعا شديدا، وكان

(٦٧) المقصود هنا بمنطقة بلش بلدتا: بلش الحسناء (Velez Rubio) وبلش البيضاء (Velez Blanco) وكلتاهما تقع على مقربة من الاخرى، في شمال شرقي مدينة بسطة.

(٦٨) أخبار العصر (١٨) ونفح الطيب (٢/٦١١)، وانظر Gaspar y Remira ; ibid ; P. 23 — 24 and 30.

أبو عبدالله خلال ذلك يبعث رسله اليهم ، ويعدهم بمقدمه . وطالت هذه الفتنة أكثر من شهرين ، ثم بدأت المفاوضة بين أبي عبدالله وبين عمه الزغل (ملك غرناطة) في عقد الصلح ، وارتضى أبو عبدالله أن ينزل عن دعواه في العرش ، وأن يدخل في طاعة عمه(٦٩) . وفي رواية أخرى أنهما اتفقا على تقسيم المملكة الى قسمين ، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ، ويختص أبو عبدالله بحكم الانحاء الشرقية(٧٠) .

وعلى أي حال ، فقد انتهز ملك قشتالة ، فرصة هذه الفتنة ، للزحف على مدينة لوشة . وهنا تتفق الروايات الاسلامية والقشتالية ، على أن أبا عبدالله ، حينما علم بتهديد الاسبان للوشة ، سار اليها وتحصن بها ، مع نخبة من أنجاد الفرسان . وهاجم الاسبان مدينة لوشة ، وشددوا الحصار عليها ، وسلطوا على أسوارها الانفاط والعدد ، وأبدى المسلمون بسالة فائقة في الدفاع عن مدينتهم . وتقول الرواية القشتالية أن ابا عبدالله بذل في هذا الدفاع مجهودا عظيما . وأنه جرح أثناء ذلك(٧١) ، ولكن لم نعثر على ما يؤيد ذلك في الرواية الاسلامية . ويكتفي صاحب أخبار العصر بالقول : بأن أبا عبدالله كان في لوشة وقت حصارها(٧٢) ، ويروى صاحب نفح الطيب بأن أهل غرناطة أذاعوا بأن أبا عبدالله ما جاء للوشة الا ليسلمها لملك قشتالة(٧٣) .

وعلى أي حال ، فان بسالة المسلمين في الدفاع عن لوشة ، لم تغن شيئا أمام القوة القاهرة ، وفتك الانفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا الى التسليم ، وذلك بالشروط التالية : أن يؤمن أهل لوشة الذين يرغبون في مغادرتها في

(٦٩) أخبار العصر (١٦) .
(٧٠) Gaspar y Remira ; ibid P. 24.
(٧١) Gaspar y Remira ; ibid, P. 32.
(٧٢) أخبار العصر (١٩) .
(٧٣) نفح الطيب (٢/٦١١) .

أنفسهم وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، وأن يسمح لمن يشاء منهم أن يعيش في قشتالة أو أراغون أو بلنسية بذلك ، وأن تسلم المدينة الى ملك قشتالة مع سائر الاسرى الاسبان • ودخل القشتاليون لوشة في (٢٦ جمادى الاولى سنة ٨٩١هـ ــ مايس ــ مايو سنة ١٤٨٦م) ، وسار معظم أهلها الى غرناطة ، بأمتعتهم وخيلهم وسلاحهم •

وأما ما يتعلق بأبي عبدالله ، فتقول الرواية القشتالية ، ان موقفه في الدفاع عن لوشة ، اعتبر منافيا لتعهداته للملكين الكاثوليكيين ، ونكراناً لحسن الصنيعة ، ومع ذلك فقد ارتضيا الصفح عنه ، وأن يسمح له بالاحتفاظ بلقب ملك غرناطة ، وأن يمنح لقب : « صاحب وادى آش » ، اذا استطاع أن يستولى عليها ، واذا أراد الالتجاء الى قشتالة ، فانه يسمح له أن يعيش هناك آمنا على نفسه ، وان شاء العبور الى المغرب أمده ملك قشتالة بوسائل الانتقال[٧٤] • على أننا نرى على ضوء الرواية الاسلامية ، وسير الحوادث أيضا ، وتحيز ملكا قشتالة لابي عبدالله دون مسوغ ، أن موقف أبي عبدالله من حوادث لوشة كان موقفا مريبا • والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة الى قضيته ، والى مقاومة عمه ونزعه عن العرش • وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه ، ولم يكن خافيا أنه كان يستظل بمظاهرة الاسبان وتأييدهم ، وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه[٧٥] ، فهو عميل للاجنبي كما يبدو •

ولما غادر ملك قشتالة لوشة ، أخذ معه أبا عبدالله اما أسيرا ، حسبما يذكر صاحب أخبار العصر ، أو أنه سار معه ليستمد عونه في تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهي خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لانها

---

(٧٤) Gaspar y Remira ; ibid , P. 32 .

(٧٥) نهاية الاندلس (١٩٦) .

تخدم أغراضه ومطامعه في القضاء على تلك المملكة الصغيرة التي مزقتها الحرب الاهلية .

ولم يغفل فرديناند تلك الفرصة الذهبية لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أراضي مملكة غرناطة ، فبينما الحرب الاهلية تضطرم في العاصمة وحولها ، اذ سار الاسبان الى حصن اليورة الواقع شمال غربي غرناطة ، وحاصروه وضربوه بالانفاط حتى اضطر أهلـه الى التسليم والخروج عنه ، ثم سـار الى حصن مكلين الواقع شمال شرقي اليورة وهاجموه . ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت بتحطيم أسواره بفعل الانفاط واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه الى غرناطة ، ثم استولى الاسبان بعد ذلك على حصن قلنبيرة الواقع شرقي مكلين بالامان[٧٦] ، اذ رأى أهله ما نزل بغيرهم ، ففضلوا التسليم دون قتال . واستولوا بعده على سلسلة أخرى من القلاع والحصون التى تحمى مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدى دورها فيما بعد في التضييق على العاصمة وتهديدها[٧٧] .

وهنا نقف قليلا لنتساءل عن حقيقة هذه «الانفاط» التي توالى ذكرهـا في سير هذه المعارك ، خاصة في لوشة ورندة والحصون المجاورة ، والتى كانت فيما يبدو عمدة الاسبان في التفوق على المسلمين في تحطيم تلـك الحصون القوية . وقد أشارت الرواية الاسلامية عن سقوط غرناطة الى الانفاط ، وهي رواية صاحب : أخبار العصر ، وهي التي كتبها بعد وقوع تلك الاحداث بنحو نصف قرن فقط ، وكان شاهدا لها ومشاركا فيها ، الى تلك الانفاط في عدة مواضع ثم وصفها لنا بهذا الوصف : « وكان له (أي ملـك

(٧٦) حصن اليورة أو بلدة اليورة : هى بالاسبانية (Jllora)
ومو كلين أو مكلين هى بالاسبانية (Maclin) ، وقلنبيرة هـى (Colomera) ، وهى اليوم من بلاد منطقة غرناطة الشمالية الغربية

(٧٧) أخبار العصر (٢٢) .

قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد في الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهي تشتعل نارا ، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من جملة ما كان يخذّل في أهل المواضع التي كان ينزل فيها » .

ونحن نعرف ، أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يحذقون استعمال الرمي بالنار والانفاط ، وأن هذه النار كانت ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات ، على معسكرات العدو وحصونه وسفنه في البحر فتفتك بها . وقد لعبت هذه النار دوراً مهماً في الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذي استأثر به المسلمون مدى حين في الشرق ، قد عرفه مسلمو افرقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجري ، واستعملوه في محاربة أعدائهم الاسبان ففي حصار لبلة (٦٥٥هـ - ١٢٥٧م) استعمل الموحدون لدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة ، الات تقذف حجارة ومواداً ملتهبة يصحبها دوي كالرعد . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور ، ومنذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) نرى مسلمي الاندلس يستعملون لمقاتلة الاسبان آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوي مخيف (٧٨) . وظهرت براعة الأندلسيين في استعمال هذه الآلات في عدة مواقع . ففي حصار بياسة سنة (٧٢٤هـ - ١٣٢٤ م) في عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات في موقعة وادي لكة (ريوسليتو) سنة (٧٤٠هـ - ١٣٤٠ م) ، وفي الدفاع عن الجزيرة سنة (٧٤٢هـ - ١٣٤٢ م) وذلك في عهد السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات انها كانت نوعاً من المدافع

(٧٨) مواقف حاسمة - ط ٣ - (١٠٨ - ١٠٩) .

الساذجة التي تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملتهبة ، التي كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وفقوا في هذا العصر أيضا الى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألماني برتولد شفارتز في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي . ومن المرجح أن الاسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمي الأندلس وحذقوا في استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت نشاطاتها الدفاعية ، ونقصت مواردها من السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أن من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضا في محاربة أعدائهم ، وان يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم الأنفاط بكثرة ، وكانت السلاح المفضل في مهاجمة القواعد والحصون الاسلامية . وهناك مايدل على أن هذه الأنفاط التي كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع في صورته البدائية ، فالرواية الغربية تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا : ان هذه المدافع كانت تصنع في مدينة رشقة ، وان كميات كبيرة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع في جبال قسنطينة ، وتحدثنا الرواية الاسلامية المعاصرة عن البارود ، وتقول : ان[٧٩] الاسبان حينما نشبت الثورة في ربض البيازين ، أمدوا فريقاً من الثوار بالرجال والأنفاط والبارود[٨٠] اذ كاءً منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التي تنوه الرواية الاسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم في معارك غرناطة،

(٧٩) Sierra Constantina . Prescott ; ibid ; P. 223

(٨٠) أخبار العصر (٢٤)

انما هي المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين في استعمال هذا السلاح كان له أعظم الأثر في التعجيل باخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

ولنعد الى قصة الحرب الأهلية في غرناطة ، فقد ثار أهل البيازين كما ذكرنا بتحريض من دعاة أبي عبدالله وأمه الأميرة عائشة ، والتف معظم الشعب الغرناطي حول أميره أبي عبدالله الزغل ، واستمرت المعارك سجالا بين الفريقين مدى أشهر ، وفي أثناء ذلك استولى النصارى على لوشة وعلى كثير من الحصون الشمالية الغربية . وسار أبو عبدالله بعد سقوط لوشة مع ملك قشتالة ، ولم يمض سوى قليل حتى عاد الى الأنحاء الشرقية ، الى منطقة بلش وأخذ يدبر خططه . وفي أوائل شوال (٨٩١هـ ــ أيلول ــ سبتمبر ١٤٨٦م) غادر أبو عبدالله محمد الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة في ربض البيازين . واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأذاع أنه عقد الصلح مع الاسبان ، وأمده حليفه فرديناند بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ، ومنها الأنقاط [٨١] ، فزادت الفتنة اضطراما . وشدد أبو عبدالله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم ، اذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته على مدينة بلش مالقة (Velez Malaga) وذلك في (ربيع الثاني سنة ٨٩٢هـ ــ آذار ــ مارس ١٤٨٧ م) [٨٢] ، وكان من الطبيعي أن ينتهز فرديناند الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية ، وكانت بلش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاى الزغل في الحال أهمية بلش فهرع اليها في بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبدالله محمد وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته ، واستبسال أهل بلش في الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش مالقة بيد الاسبان في (جمادى الأولى سنة ٨٩٢هـ ــ نيسان ــ أبريل

(٨١) Gaspar y Remira ; ibid ; P. 42 .

(٨٢) اخبار العصر (٢٢ ــ ٢٤) ونفح الطيب (٢/٦١٢) .

١٤٨٧ م) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة • ولكنه علم أثناء مسيرة أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبدالله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى ــ ٢٨ نيسان ــ أبريل) • وكان أهل غرناطة يحبون الزغل ، ويقدرون بطولته وحبه لوطنه ، واستبساله في مقاومة الاسبان ، ولكنهم تحولوا عنه الى تأييد أبى عبدالله لمحالفته للاسبان ، وأملهم بذلك في اتقاء عدوانهم على أرباضهم وقراهم ، وصون أنفسهم ومصالحهم ، وهكذا أيقن الزغل عبث المحاولة ، وارتد بصحبه الى وادي آش ، وامتنع فيها بقواته ، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة الى شطرين ، يتربص كل منهما بالآخر: غرناطة وأعمالها يحكمها أبو عبدالله محمد بن السلطان أبى الحسن ، ووادي آش وأعمالها يحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبو عبدالله الزغل) • وتحقق بذلك ماكان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية الباقية من دولة الاسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها •

* * *